

الكلمات المعربة مكتوبة عن السلف وطبيعة النسخ، وتكراره من عدد كبير من النسخ يُؤدّد عادة التصحيف أو التحريف. ومن الأمثلة على ذلك ما ظنه إبراهيم بن مراد من أن ابن الجزار قد غير حرف الدال في آخر الكلمة إلى لام (24) ولا أظنه على صواب في رأيه بل إن ما وجد من تغيير يعود إلى تحريف النسخ لا غير ومما يرجح ما قلناه كثرة وقوع التحريف بين الدال واللام إذا كان الحرفان في آخر الكلمة.

ثانياً : أثر العربية في بناء المعرب:

لم يقتصر التغيير الذي أحدثته العربية في الكلمة الأعجمية على الأصوات وإنما شمل البناء أيضاً من أجل أن تتواءم المفردات المعربة مع العربية وتكون مألوفاً ومستساغة عند التداول نطقاً وسماعاً.

وقد فطن اللغويون العرب القدماء إلى ما أحدثته العربية من تغيير في بناء اللفظ المعرب فقد قال سيبويه "إن العرب لما أرادوا أن يعربوه أحقوه ببناء كلامهم" (25).

وإن إلحاق اللفظ الأعجمي بالبناء العربي يستلزم أحياناً الحذف من الكلمة أو الزيادة عليها. وهذا ما أشار إليه سيبويه أيضاً بقوله "وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناءهم" (26).

فالزيادة أو الحذف الذي يجريه العرب على اللفظ الأعجمي لاجتماعه مضارعاً للبناء العربي دائماً، فقد تحقق هذه المضارعة أولاً. ثم إن العرب لم يلتزموا بضرورة تغيير بناء اللفظ المعرب ليكون مناسطراً للبناء العربي دائماً بل إنهم "ربما أحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه" (27).

وقد بين الجواليقي التغييرات التي يجريها العربي على

الأميون قسماً منها أيضاً، فقد عرب بعض أرباب المهن المفردات الخاصة بعملهم وشتان بين منهج كل منها في عمله، فالعلماء يخضعون لعملهم للأسس الصوتية الدقيقة في حين أن عمل الأمي يخضع للانطباع ويحتمل الخطأ وعدم الدقة. كل ذلك يؤدي إلى اختلاف نطقهم للصوت الواحد عند تعريبه.

8 - إن المفردات الأعجمية التي عربت لم تكن كلها مأخوذة من اللغة الأعجمية مباشرة وإنما نقل قسم منها عن طريق لغة وسيطة كما حدث عند تعريب قسم من الألفاظ اليونانية فقد أخذت عن طريق اللغة السريانية، ولأدل على ذلك من تشابهها معها أكثر من شبهها باللغة اليونانية (22).

واللغة السريانية لا تختلف عن غيرها من اللغات في ادخال بعض التغيير على أصوات المفردات التي تنقلها إليها، وهذا يعني أن المفردات التي تعرب عن طريقها قد حدث فيها التغيير مرتين مرة في اللغة الوسيطة وأخرى عند التعريب. ولاشك أن ذلك سوف يؤدي إلى اختلاف نطق الأصوات بين العربية واليونانية.

9 - لعل من أسباب اختلاف الأصوات المعربة عن الأعجمية أن العربي المعرب لها قد غيرّها عن قصد منه ووعي - وبخاصة إذا كان المعرب عالماً - من أجل عدم الوقوع في اللبس اللغوي ودفعاً عن الاشتباه بكلمة أخرى عربية. فقد غير صوت كلمة (بادية) الفارسية التي تعني نوعاً من الأوعية إلى كلمة (باطية) لتحاكي اشتباهها مع كلمة (بادية) العربية التي تعني الصحراء (23).

10 - لعل للتصحيف أو التحريف دور في ما يلاحظ من اختلاف بين المعرب والأعجمي لأن الخلف قد تسلم أكثر

موجودة في لغتها الأصلية والعرب لا يزيدون في البناء عند التعريب.

وهذا الرأي يخالفه أغلب اللغويون كما تكفي مقارنة سريعة بين الكلمات المعربة والأصل الذي اقترحت منه لمعرفة عدم دقة هذا الرأي. ونأخذ مثلاً على ذلك من الكلمات اليونانية فإن قسماً من كلماتها المبدوءة بساكن تزداد همزة عند تعريبها كما في أسطول وإسفنج وإسكيم وإقليم (34).

ج - حذف حرف أو أكثر من الكلمة من ذلك أنهم عربوا لفظة (غالغا) السريانية التي تعني الفقيه إلى (فلج) (35) بعد أن حذفوا منها الألف من وسطها.

د - دمج كلمتين في كلمة واحدة من ذلك تعريبهم مركب (سدلي) إلى السدير "وأصله سدلي أو ثلاث قباب بعضها في بعض" (36). ومن ذلك أيضاً كلمة سجيل فإنها معرب سفك و كل (37).

هـ - تغيير في تشكيل حركات اللفظ عن طريق تسكين متحرك أو تحريك ساكن أو تغيير حركة بأخرى كما فعلوا عند تعريب زور وآشوب (38).

وقد يشمل التغيير في البناء أكثر من نقطة مما سبق من ذلك عند تعريبهم كلمة (أرزرز) إلى (الرصاص) فقد حذف منها حرف الألف في أولها وغيرت حركة الراء إلى الفتح بعد أن كانت ساكنة (39). هذا غير ما أبدلوه من أصوات الكلمة الأخرى.

ثالثاً: إدخالهم إحدى التغييرات السابقة الذكر عليه أو أكثر لكنهم لم يلحقوه ببناء العربية من ذلك تغيير الفتحة في كلمة أبريشم - عند تعريبها - إلى كسرة

بناء الألفاظ الأعجمية ويكون "بإبدال حرف من حرف أو زيادة حرف أو نقصان حرف أو إبدال حركة بحركة أو إسكان متحرك أو تحريك ساكن وربما تركوا الحرف على حاله لم يغيروه" (28).

وعلى ما تقدم نصل إلى أن العرب لم يلتزموا بقاعدة ثابتة تنظم عملية تغيير البناء في الأعجمي عند تعريبه وإنما لهم مواقف مختلفة إزاء المعربات نجملها بما يأتي:

أولاً : إذا كان بناء الألفاظ الأعجمية موافقاً لأحد الأبنية العربية فلا يحدثون فيه أي تغيير عند التعريب غالباً لأنه يوافق ما ألفوه من ألفاظ . وإن أكثر المعربات على هذا النحو .

ثانياً : إذا كان اللفظ الأعجمي لا يشابه أحد الأوزان العربية فإنهم اتخذوا منه أحد الموقفين الآتين :
1 - إدخالهم عليه واحد من التغيرات الآتية أو أكثر وألحقوه ببنائهم:

أ - حذف بعض حروف الكلمة من الأعجمية كما في (فيروزج) فقد حذفوا الحرف الأخير منها عند التعريب وأصبحت فيروز (29). ومثل ذلك ما عملوه في (كرد) فأصله (كردن) (30).

ب - إضافة حرف أو أكثر على الكلمة الأعجمية من ذلك كلمة (هليلج) فقد عربت إلى إهليلج (31) بزيادة همزة في بدايتها مع تغيير في أحد حروفها. ومثل ذلك زيادتهم الهاء في (قرمان) فقالوا (قهرمان) (32).

وقد أنكر الصغاني أن يكون العرب قد زادوا في حروف الكلمة وعلى ذلك فإنه خطأً من عرب كلمة أنموذج (32) وأصر على حذف همزة منها لأنها غير

فصارت إبريسم(40). ومعلوم أن "مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء العربية" (41).

رابعاً: استعمال الكلمة العربية في أكثر من بناء ولعل خير مثال على ذلك استعمالهم الكلمة التي تدل على الطائر المعروف بالشاهين ببناءات مختلفة وهي "السودائق والسودنيق والشودوق بالشين المعجمة. قال ووجد بخط الأصمعي شودائق وقيل شودنوق - وكلمة الشاهين وهو فارسي معرب - وسودق أيضاً" (42).

خامساً: إبقاء الكلمة على بنائها الأعجمي من غير تغيير فيه وقد ذكر سيبويه هذا النوع من التعريب بقوله "إن العرب ربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه عند بنائه في الفارسية نحو... آجرّ وجرّيز" (43).

وقال عنه الجواليقي أيضاً "ومما تركوه على حاله فلم يغيروه خراسان وخرم وكر كم" (44).

ويلاحظ على جهود العرب في تعريب البناء أنه لم يكن وفق منهج علمي ثابت أو قاعدة محددة يراعيها العربون فتباينت جهودهم واختلفت تعريباتهم من حيث الدقة وعدمها. ونحاول أن نجد تعليلاً معقولاً يفسر لنا ذلك فيما يأتي:

1 - إن تعقيد قواعد علم الصرف بما فيها قواعد البناء والميزان الصرفي قد تم في القرن الثاني الهجري في حين أن عملية تعريب الألفاظ قد بدأت قبل هذا التاريخ بقرنين أو أكثر واستمرت حتى يومنا هذا أي أن كثيراً من المفردات العربية لم تخضع لقواعد علم الصرف؛ لأنها لم توجد بعد. وبعد ما وجدت واستقر علم الصرف عليها لم يلتزم بعض العربيين بها إما لجهلهم بهذه القواعد أو للغفلة عنها أو لأي سبب آخر. وهذا ما يؤدي حتماً إلى عدم اتفاق

العربيين المختلفين في عملهم. ولعل هذا ما يفسر لنا تعريب بعض المفردات على أكثر من بناء وتعريب الكلمات الأعجمية التي على بناء واحد إلى أبنية مختلفة.

2 - إن الذين عربوا المفردات يختلفون في مستوياتهم العلمية والثقافية واللغوية فمنهم الخواص المتضلعون باللغة ومنهم العوام الذين قد تفشى اللحن على ألسنتهم. وشتان بين عمل كل منهما. فعمل العالم يتسم بالدقة العلمية ويحاول عن قصد أو بدونه جعل ما يعربه من مفردات مشابهة لبناء الكلمات العربية، لأن طبع الإنسان يميل إلى ما ألف وينفر عما استغرب. ولاشك أن العالم باللغة قد ألف طريقة العرب في البناء فيجعل ما يعربه من ألفاظ أعجمية موافقاً لما ألف فتكون الألفاظ المعربة عن طريقه تشابه الأبنية العربية. في حين أن عمل العوامي المعرب للألفاظ لا يكون كذلك لجهله بطريقة العرب في البناء فما يعربه يخالف قسم منه على الأقل البناء العربي.

3 - لم يقتصر التعريب على شخص أو أشخاص معينين أو لجان علمية كما أن المعربين لم يكن بينهم اتفاق مسبق بأن يراعوا في عملهم البناء العربي حتى عند العلماء منهم فضلاً عن العوام. ولعل خير دليل على ما ذكرناه قول الفراء بأن الاسم الفارسي يبنى "أي بناء كان إذا لم يخرج عن أبنية العرب" (45).

4 - الخطأ في النطق أو السمع قد يؤدي إلى الاختلاف في بناء الكلمة وقد فطن أبو عمر الجرمي إلى ذلك فقال "وإذا حكى لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه؟ فلا ترينه تخليطاً فإن العرب تخلط فيه وتكلم به مخلطاً لأنه ليس من كلامهم فما اعتنقوه وتكلموا به خلطوا" (46). والتخليط لا يقتصر على الغلط في نقل الأصوات

وإنما يعم الغلط في صوغ البناء أيضاً.

ثالثاً: أثر العربية في دلالة المعرب:

تتصف دلالات الألفاظ بخاصة قبورها للتطور اللغوي أي أنها لا تبقى دائماً ملازمة للمعنى الذي كانت عليه في بدايات نشأة اللغة إن تهيأت لها عوامل لغوية معينة. ومنها دخول المفردة إلى لغة أجنبية تجعلها منقطعة عن أسرتها اللغوية وهذا ما ييسر عملية حدوث التطور فيها.

والتطور الدلالي يتخذ مظاهر مختلفة فيما أن يكون من الشدة بحيث يؤدي إلى أن تترك المفردة معناها السابق وتقطع الصلة بينها وبينه وتكتسب معنى جديداً لا تُعرف إلا به غالباً وإما ألا يصل التطور إلى هذه الدرجة فيكون المعنى الجديد له علاقة بالسابق لكنه أخص منه أو أعم.

واللغة العربية قد أثرت في دلالة المفردات المعربة عن طريق تخصيص دلالتها أو تعميمها أو تغيير مجال استعمالها، وكما يأتي:

1 - تخصيص الدلالة: يقصد بهذا النوع من التطور ما يلحق بالكلمة من تغيير يُقلص فيه المعنى ويقلل من اتساعه. وقد خصصت اللغة العربية بعض المفردات المعربة من ذلك كلمة (كنده) الفارسية التي تعني الحفور المخدود، والكهف في الصحراء (47) قد تُخصص معناها بعد تعريبها إلى "الحفير حول أسوار المدن" (48) من أجل الدفاع عنها.

ومن ذلك أيضاً كلمة الفردوس فهي في اللغة اليونانية تدل على البستان سواء أكان مخاطباً بالسور أو الكرم وقد تقلص معناها بعد التعريب إلى الجنة (49)،

وبخاصة بعد استعمالها في هذا المعنى بالقرآن الكريم. قال

تعالى ؛ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (50).

2 - تعميم الدلالة: ويقصد به ما يلحق معنى الكلمة من تطور يوسعه ويزيد في شموله. وقد حدث ذلك في عدد من الألفاظ المعربة، ومنها كلمة الزخرف فقد كانت تدل في اللغة اليونانية على التزيين برسم الحيوانات، وهي مركب لغوي من كلمتين (زو) أي الحيوانات و(جرافيا) أي يكتب أو يرسم، وبعد أن دخلت إلى العربية صارت تدل على عدة معانٍ (51) منها التزيين بأي شيء أو شكل ولا يقتصر على التزيين بالحيوان (52).

ومن الألفاظ التي تعمم معناها بعد تعريبها (التاجر) فإن معناها في الآرامية بائع الخمر خاصة (53) وتوسع معناها بعد دخولها إلى العربية إلى كل بائع السلع والحاجات خمراً كان أم غيرها (54).

3 - تغيير مجال الاستعمال: ويقصد به تطور دلالة الكلمة إلى معنى يختلف تماماً عما كانت عليه. وقد فطن الخفاجي إلى التبدل الذي طرأ على دلالة بعض المفردات بعد التعريب بقوله "وقد يعرب لفظ لم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعاً له كحرم اسم نبت يشبه به الشيب وهو سراج القطرب واستعماله بهذا المعنى مخصوص بالعربية" (55).

ومما تغيرت دلالاته بعد تعريبه كلمة "برزخ" التي تدل في الفارسية على البكاء والنحيب فتغيرت دلالتها بعد التعريب إلى كل حاجز بين الشيتين وما بين الدنيا والآخرة (56).

الموامش

- 1 (الكتاب نسيويه 303/4 .
- 2 (الكتاب نسيويه 304/4 .
- 3 (الكتاب نسيويه 304/4 .
- 4 (الكتاب نسيويه 305/4 .
- 5 (المعرب لنحو اليقي ص 54 .
- 6 (شفاء الغليل للخفاجي ص 25 .
- 7 (المعرب لنحو اليقي ص 54-55 وانظر شفاء الغليل للخفاجي ص 25 .
- 8 (انظر المعرب لنحو اليقي ص 55 .
- 9 (المهر نلسيوطي 272/1 .
- 10 (المهر نلسيوطي 274/1 .
- 11 (غرائب اللغة لرفائيل ثخلة ص 25-251 .
- 12 (المهر نلسيوطي 274/1 .
- 13 (معجم الدخيل في العربية لظه باقر ص 59 .
- 14 (المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة لإبراهيم بن مراد ص 118 .
- 15 (انظر الكتاب نسيويه 305/4 والمعرب لنحو اليقي ص 54 وشفاء الغليل للخفاجي ص 25 .
- 16 (المعرب لنحو اليقي ص 54 .
- 17 (نظرات في اللغة للدكتور محمد مصطفى رضوان ص 222 .
- 18 (أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص 192 .
- 19 (انظر المعرب لنحو اليقي ص 56 .
- 20 (المعرب لنحو اليقي ص 56 .
- 21 (أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص 196 .
- 22 (انظر غرائب اللغة العربية لرفائيل ثخلة ص 250 .
- 23 (انظر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 196 .
- 24 (انظر المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة ص 119 .
- 25 (الكتاب نسيويه 304/4 .
- 26 (المصدر السابق 304/4 .
- 27 (المصدر السابق 304/4 .
- 28 (المعرب لنحو اليقي ص 54 .
- 29 (انظر المعرب لنحو اليقي ص 56 .
- 30 (انظر في التعريب والمعرب ص 23 .
- 31 (انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40 .
- 32 (انظر في التعريب والمعرب ص 23 .
- 33 (انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40 .
- 34 (انظر غرائب اللغة لرفائيل ثخلة ص 250 .
- 35 (انظر المهر نلسيوطي 287/1 .
- 36 (المهر نلسيوطي 280/1 .
- 37 (انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 31 .
- 38 (انظر المعرب لنحو اليقي ص 56 .
- 39 (انظر المهر نلسيوطي 282/1 .
- 40 (انظر المعرب لنحو اليقي ص 56 والمهر نلسيوطي 270/1 .
- 41 (المهر نلسيوطي 270/1 .
- 42 (المهر نلسيوطي 287/1 .
- 43 (الكتاب نسيويه 304/4 .
- 44 (المعرب لنحو اليقي ص 56 وانظر شفاء الغليل ص 30 .
- 45 (المعرب لنحو اليقي ص 57 .
- 46 (المصدر السابق ص 57 .
- 47 (انظر تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية لطويبا العنيسي ص 25 وأثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 347 .
- 48 (القاموس المحيط لفيروز آبادي (خندق) 237/3 وانظر الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير ص 57 .
- 49 (انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 347 .
- 50 (سورة الكهف آية 107 .

- 51 (انظر معاني كلمة زخرف في القاموس المحيط (زخرف) .152/3
- 54 (انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 243.
- 52 (انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 339.
- 55 (شفاء الغليل للخفاجي ص 23.
- 56 (أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 300.
- 53 (غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة ص 175.

مصادر البحث ومراجعته

- 1 - أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو، دمشق سنة 1982م.
- 2 - أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث للدكتور عبد الله عبد الحميد سويد، ط 2 ليبيا، بلا تاريخ.
- 3 - الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير، بيروت سنة 1908.
- 4 - تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه لطوبيا العنيسي، القاهرة سنة 1965م.
- 5 - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجي، نشره محمد عبد المنعم خفاجي، ط 1 القاهرة سنة 1952م.
- 6 - غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة اليسوعي، ط 2 بيروت سنة 1959م.
- 7 - في التعريب والمغرب لابن بري، تحقيق د/إبراهيم السامرائي، ط 1 بيروت سنة 1985م.
- 8 - القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط 2 سنة 1952م.
- 9 - قرار مجمع اللغة العربية الأردني المنشور في مجلة المجمع، العدد 40 لسنة 1991م.
- 10 - الكتاب لسيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة سنة 1963م.
- 11 - المزهري في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي، تحقيق لجنة من الأساتذة، القاهرة سنة 1960.
- 12 - المصطلحات الفنية للدكتور صادق الهلال، ي بحث نشر في مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 27 لسنة 1986.
- 13 - المصطلح العلمي العربي قديماً وحديثاً للدكتور مناف مهدي محمد، بحث نشر في مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 30 لسنة 1988.
- 14 - المغرب الصوتي عند العلماء المغاربة لإبراهيم بن مراد، تونس سنة 1978.
- 15 - معجم الدخيل في اللغة لظه باقر، بيروت، بلاتاريخ.
- 16 - المغرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي، تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة سنة 1969م.
- 17 - نظرات في اللغة للدكتور محمد مصطفى رضوان، ط 1 ليبيا 1976.

الكتابة بين السريانية والعربية

الدكتور/ محمد علي الزر كان

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة حلب / سوريا

تمهيد

بدأت محاولات الإنسان منذ أقدم العصور للتعبير عن أعماله وما يجري في ذهنه بأسلوب يبقى للمستقبل القريب أو البعيد.

ولقد عثر الباحثون في أماكن عديدة من الدنيا، وفي موطن الساميين خاصة على رسوم ونقوش ولوحات، تظهر أطوار الكتابة، ويتبين من هذه الرسوم والإشارات المنحوتة في جدران الكهوف، أن الإنسان بدأ يعبر عما يدور في خلدته منذ أزمان بعيدة (1).

وفي الألف الخامس قبل الميلاد تطور هذا الأسلوب في جنوب وادي الرافدين ومصر القديمة، حتى اتخذ أشكالاً وصوراً ورموزاً متتابعة تدل كل منها على كلمة، ويشير مجموعها إلى سلسلة من الحوادث، وسميت هذه الكتابة (الصورية) وفي الألف الثالث قبل الميلاد، راح شعب جنوبي الرافدين في تطوير الكتابة التي أخذت الإشارات والرموز فيها الشكل المثلث الاسفيني المسمى بالخط المسماري والذي تدل كل إشارة فيه على مقطع (2).

وقد ظهر بعد ذلك أسلوب الكتابة المقطعية في نواح عديدة من العالم، فظهر في مصر في مستهل الألف الثالث

قبل الميلاد، وفي جزيرة كريت وفي الهند وفي الصين في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد (3).

ولما كان الخط المقطعي صعباً ومعقداً لاحتوائه على نيف وخمسمائة رمز أو مقطع، إضافة إلى الحركات التي تعطي الرمز المقطعي الواحد معاني عدة، كان لابد للإنسان أن يتوصل إلى أسلوب كتابي أكثر بساطة وأقل تعقيداً.

وقد ظهرت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كتابة تدل فيها الصور والرموز على مخارج صوتية تتألف منها المقاطع، وهذه بداية عهد جديد مشرق في علم الكتابة، جاء نتيجة تطور طويل على مر الأجيال. لذلك يوجز الأستاذ طه باقر أدوار الكتابة بما يلي: (4)

- 1- دور الإشارات والرموز "الإشارة تدل على عمل".
- 2- الدور الصوري والدور الرمزي "الإشارة تدل على كلمة".
- 3- الدور الانتقالي إلى الدور الكتابي المختلط المسمى بالخط المسماري "الإشارة تدل على مقطع".
- 4- دور الحروف الهجائية، الدور الصوتي المجرد "الإشارة تدل على حرف".

الكتابة الأبجدية:

منه أيضا القلم الإيبيري (الإسباني القديم)، وقد انقرضت جميعها، ويرى العديد من الباحثين أن الأبجدية اليونانية (أم الأقلام الغربية كافة) اقتبست من الفينيقية.

3- القلم العربي القديم: تولد منه الأقلام التالية: المروابي والآدمي والعموني والسامري، ولم يبق منها إلا الأخير على نطاق ضيق جدا.

4- القلم الآرامي: وقد تولدت منه أبجديات كثيرة. (6)

وهكذا يتضح للقارئ بعد هذه المقدمة السريعة أن الأقوام القديمة بناء حضارة ما بين النهرين ومصر وجرر بحر إيجه وآسيا الصغرى ووادي الهندوس والصين قد توصلوا إلى أسلوب متطور في تاريخ الكتابة، إلا أنهم لم يتمكنوا من بلوغ الطور الأخير - أعني الطور الأبجدي - وهو ما توصل إليه الشعب السامي في بلاد الشام والعراق، وتلك واحدة من أعظم مآثر الساميين التي أوروها للبشرية وستابع في الصفحات القادمة الفصول المتعلقة بالكتابة في السريانية والعربية. وما أن السريانية وارثة الآرامية، فقد مهدت لها بفصل لينير الطريق أمامنا في بحث الكتابة السريانية والعربية. (7) ينظر الأشكال 1-2-3-4).

-الكتابة الآرامية:

سأتناول في هذا الجزء الكتابة الآرامية بشكل سريع لأنها تعدّ الأمّ التي غدّت بلبانها القلمين السرياني والعربي. ولا غرابة في ذلك فقد اقتبس الآراميون كتابتهم من الأبجدية السامية الشمالية مباشرة، ولما غزت لغتهم ما بين النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، دخلت معها كتابتهم الأبجدية السهلة

ومن أعظم مآثر الإنسانية في العصور القديمة هو ابتكار الحروف الهجائية الأبجدية، ذلك الإناء العجيب الذي استوعب تاريخ البشرية من جميع نواحيه. إن تساؤلات كثيرة قد ترد إلى الذهن... ترى متى تم هذا الإنجاز الفذ؟ من قام به؟ وأين...؟ أسئلة بذل العلماء والباحثون مجهودات جبارة طوال قرون عديدة للإجابة عنها، إلا أن الحقيقة لما تنجل بعد، وما يزال العلماء تبعاً للاكتشافات الجديدة، ينقضون نظرية ويننون أخرى... كالنظرية المصرية وكنظرية ما بين النهرين، ونظرية طور سيناء وغيرها (5).

تفرع الأبجدية السامية:

مثلما انقسم الشعب السامي فيما قبل التاريخ إلى أقوام وقبائل كثيرة، وتشعبت لغته السامية الأم إلى لغات عديدة. كذلك تفرعت الأبجدية السامية الشمالية الأولى التي ابتكرها الساميون في سورية وكنعان إلى أربعة أقلام قديمة رئيسة:

1- القلم السامي الجنوبي: انتشر في حينه في جنوب شبه الجزيرة العربية وعبّر البحر الأحمر إلى الحبشة، وانتشر بعد ذلك بين قبائل الجزيرة العربية، وتولدت منه الأقلام اللحيانية والتمودية والصفوية (نسبة إلى الصفا قرب حوران) في حين لم تقم له قائمة إلا في القلم الحبشي.

2- القلم الفينيقي القديم: تولد منه القلم الفينيقي المتأخر، وانتقل مع بعض التغيير إلى المستعمرات الفينيقية في شمال إفريقيا على سواحل البحر الأبيض المتوسط، كقلم قرطاجنة وقلم ليبيا القديم، كما تولد

السيطة. فلقد تهيأ للآرامية من الأسباب ما جعلها تنتشر في الشرق من أقصاه إلى أقصاه، لسهولة أيجديتها وبساطة اشتقاقها وقواعد نحوها.

ونظرا لكون القبائل الآرامية متاخمة، وأحيانا متداخلة مع الإمبراطورية الآشورية دون بقية الأقوام ذات الكتابة الأيجدية كالفينيقيين والعبريين والعرب الجنوبيين نذلك انتشر الخط مع توسع الإمبراطورية الآشورية التي شجعت ثم زاد ازدهارا في عهد الإمبراطورية البابلية الكلدانية وارثة الآشورية. فأزاحت الكتابة الآرامية الخطوط المسامرية بمختلف أنواعها، والخطوط الأيجدية السامية الشمالية كالعبري والفينيقي بفروعهما، وتعدت إلى اللغات غير السامية (8).

وأخر خط أزاحته هو الخط العربي الجنوبي (المسند)، وذلك حينما احتفت الخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية في شمال الجزيرة العربية، ثم في جنوبها أمام الخط العربي المنحدر من الكتابة النبطية الآرامية.

ويلاحظ أنه لم يعثر على آثار للخط الآرامي بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد إذ أنه العهد الذي تكونت فيه كتابات آرامية محلية كالعبرية المربعة والنبطية والتدمرية والحضرية والسريانية، فليس من السهل فكشف عن مدى تأثير الكتابة الآرامية في الطور الأول على بناتها كتابات الطور الثاني. (9)

يقول صاحب اللعة الشهية (10): "أما القلم الأول الذي اخترعه الآراميون فلا يعلم بتحقيق كيف كانت صور حروفه فردا فردا. ولكن ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أن هذا القلم هو القلم المسامري الذي يرى في الكتابات المرسومة على الأحجار الكثيرة التي كانت

مطمورة تحت الأرض في نينوى بقرب الموصل وأماكن أخرى. غير أن هذا القلم القديم تغير شيئا فشيئا في تتابع الأزمان حتى ذهب عنه الشكل المسامري وتولد منه قلم جديد مخطط الحروف، متشابهة حروفه بحروف القلم المسامري. وهذا القلم البكر منذ الأزمان القديمة تولد منه أقلام كثيرة مشابهة بعضها لبعض مع اختلاف أزمانها وأماكنها. أما ما هو معروف اليوم من هذه الأقلام المتولدة من القلم الأصلي، فأولا: القلم السامري الذي كان اليهود يستعملونه قبل جلائهم إلى بابل، وإلى الآن يستعمله السمرية القليل عددهم. ومنها القلم الفوني أو الفونيقى، أي المكتوب على الأحجار القديمة التي وجدت وتوجد إلى اليوم في الجانب الغربي من بلاد الشام. والقلم التدمري المنقوش في آثار مدينة تدمر المشهورة وما يجاورها. والقلم الذي يسميه علماءنا بالنبطي وهو الذي كان يستعمله جيل من السريان في بلاد الشام وبلاد العرب يقال فهم النبط. ومن هذا القلم نتج القلم الحميري العربي الذي منه تولد القلم الكوفي ومن هذا نشأ القلم العربي المعروف اليوم الذي يقال له النسخي. (11)

وأقدم قلم آرامي اتصل بنا عهده في الكتب المسطورة هو القلم البابلي المستعمل في زمان كورش ملك فارس. وهو الذي تعلمه اليهود في جلائهم إلى بابل وبعد رجوعهم إلى أرضهم في القرن السادس قبل المسيح، لم يزالوا يستعملونه إلى يومنا هذا، ويسمونه القلم الآشوري، والسامريون يسمونه اليهودي، ويسميه علماء الفرنج القلم المربع لأن حروفه أكثرها مربع تقريبا. وحروف هذا القلم تشبه كثيرا الحروف اليونانية فنرى أن

أقدم قلم آرامي حفظ لنا إلى يومنا هذا، و يستعمله الآراميون ولا يعرفونه، بل تستعمله أمة غريبة أي اليهود، وهم يحترمون هذا القلم الآرامي ويعظمونه غاية التعظيم، حتى إنهم يتخذون كل ما يكتب به شيئا مقدسا..(12). ولا أدري هنا كيف جعل الكاتب الأنباط جيلا من السريان، وكان هؤلاء أصل وأولئك فرع، وهذا غير صحيح... ثم نجد يعترف هنا بأن القلم العربي الكوفي متولد من القلم العربي الحميري، في حين نجد في مكان آخر من كتابه ينسب القلم الكوفي إلى القلم السطرنجيلي السرياني.

تفرع الكتابة الآرامية:

دام العهد الذهبي للآرامية في ظل حكم الكلدانيين ثلاثة قرون، وأشهر ما وصل منها حكمة آحيقار المكتشفة في جزيرة (فيلة) في الصعيد المصري (13) والتي يرتقي عهد كتابتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

إلا أن الإسكندر الكبير لدى استيلائه على الشرق بعد أن قوض حكم الفرس الأخمينيين، فرض على الدولة الجديدة اللغة اليونانية، لغة رسمية عوضا عن الآرامية ففقدت الأخيرة عوامل وحدتها وتفرعت إلى لهجات أهمها: لهجة فلسطين اليهودية سليلة آرامية بابل الكلدانية، واللهجات النبطية والتدمرية والحضرية والرهاوية. كما بقيت في جنوبي ما بين النهرين لهجة أخرى هي المنداعية، وكان عامل الدين سبب بقاء اللهجتين الفلسطينية والمنداعية (أي لهجة الصائبية)(14).

وعلى أثر تقسيم دولة الإسكندر المكدوني الغازي بعد موته بين قواده، ووهن هذه الدول تحت ضربات الجيوش الرومانية الزاحفة نحو الشرق، قامت بعد مدة دويلات

أبقت على لغتها الآرامية، منها دولة النبط ودولة تدمر ودولة الحضر ودولة الرها وما حدث للغة الآرامية حدث أيضا لكتابتها إذ تطورت منذ آثارها الكتابية الأولى في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، نحو التدوير مع شيء من التزييع، فبينما كانت تكثر فيها الزوايا في أدوارها الأولى، أصبحت شبه مدورة في أدوارها الأخيرة... فنشأت نماذج جديدة للخط الآرامي في مختلف نواحي الشرق، ومالت بعض تلك الخطوط إلى التزييع كالخط العربي والخط التدمري والخط السرياني السطرنجيلي. أما الخطان النبطي والحضري فبيهما التزييع والتدوير، وأما المنداعي فهو أكثر تدويرا.(15)

الكتابة السريانية:

أ- متى وأين نشأت:

يقول بعض الباحثين أن آرامية الرها المعروفة بالسريانية هي الوارث الوحيد للغة الآرامية والتي لا زالت تعيش حتى الآن، بصرف النظر عن بعض اللهجات الآرامية الأخرى كلهجة أهل معلولا مثلا. فيكون الخط السرياني هو الوريث المباشر للخط الآرامي، وقد رأينا في المقدمة وفي بحث اللغة الآرامية كيف تفرعت هذه إلى لهجات عدة، مع ملاحظة اختلاف الباحثين في سرد هذه التفرعات اللهجية، ونسبة كل واحدة منها إلى الأخرى. لقد اكتشف العديد من آثار الخط السرياني في طوره الأول، وأكثرها في منطقة أعالي نهري دجلة والفرات، وقسم منها في سورية وفلسطين، وستدرج من الأوضح إلى الأقل وضوحا ثم إلى المشكوك فيه.

أقدم كتاب مخطوط حفظ حتى الآن باللغة السريانية يرقى إلى مستهل القرن الخامس للميلاد وهو مخطوطة